المحاضرة السادسة:

الخطاب الماهية والمصطلح

عناصر المحاضرة:

1.مقدمة

2.مفهوم الخطاب لغة

3.مفهوم الخطاب عند الأصوليين

4. مفهوم الخطاب في الحقل اللساني

مقدمة:

يعد الخطاب من المصطلحات الأكثر استعمالاً في حقل الدراسات التداولية، على الرغم من التداخل الحاصل بينه وبين مصطلحات أخرى على غرار الجملة والنص، الملفوظ...إلخ، والتي يرى أهل الاختصاص أنه أمر حتمي نظراً لطبيعة هذا المنهج النقدي الذي وصف بأنه علم غزير استطاع أن يحوي كل ما أهملته المناهج اللسانية التي سبقته، وخاصة الجانب التفاعلي في للغة،إذ لم تحظ الوقائع الكلامية بالاهتمام العلمي الكافي من قبل دي سوسير كما هو الحال بالنسبة للغة، ولهذا فإننا لا نصل إلى تصور منهجي ومعرفي لعلم الخطاب في دروسه، وهو ما أوقع اللسانيات في مأزق الصورية والجمود، وهو ما دفع بالتداوليين إلى الخروج إلى فضاء أوسع فضاء الخطاب ، فما هو الخطاب ؟

1.مفهوم الخطاب لغة:

أورد صاحب اللسان لفظ الخطاب والمخاطبة بمعنى«مراجعة الكلام، قد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً وهما متخاطبان، والليث:الخطبة مصدر الخطيب، وخطب الخاطب على البمنبر، واختطب بخطب خطابه، واسم الكلام الخطبة...والمخاطبة مفاعلة من الخطاب والمشاورة»[1] .

كما ورد لفظ "الخطاب" في الثقافة العربية في مواضع عدة،أبرزها نص القرآن الكريم، إذ يمكن أن نقف على هذا اللفظ بصيغ متعددة، من ضمنها صيغة الفعل في قوله تعالى:«واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون»[2].

1. مفهوم الخطاب عند الاصوليين:

ورد لفظ الخطاب أكثر عند الأصوليين باعتبار أنه اللبنة الأولى التي تقوم عليها اجتهاداتهم، ولذلك فقد عنوا بتحديد مفهومه وضبط موضوعاته وأقسامه والعناصر المشكلة له،سواءً كانت لغوية أو غير لغوية،لذلك فقد عرف من قبلهم بأنه « أحد مصدري الفعل

---

[1] ابن منظور:لسان العرب مادة (خطب).ص 1994.

[2] سورة هود، الأية 37.

خاطب يخاطب، خطاباً ومخاطبة، وهو يدل على توجيه الكلام لمن يفهمه، نقلاً من الدلالة على الحدث إلى الدلالة على الاسمية، فأصبح في عرف الأصوليين يدل على ما خوطب به، وهو الكلام»[3]،وعليه فإن من خصائص الخطاب أن يكون:

– موجهاً إلى من يتوفر على شرط فهم الكلام الموجه إليه،لذلك فقد جعل "الجويني" الخطاب والكلام واحداً وذلك أن «الكلام والخطاب والتكلم والتخاطب والنطق واحد في حقيقة اللغة، وهو ما يصير به الحي متكلماً»[4].

– شرط القدرة على الفهم إذ أضاف الآمدي –إلى جانب شرط التوجيه–شرط القدرة على الفهم في تعريفه للخطاب بأنه« اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه»[5]، مؤكداً على ضرورة توفر أرضية لغوية بين طرفي الخطاب(المتكلم والسامع)،مع توفر قصد التوجه بالخطاب من جهة الأول، وشرط القدرة على الفهم والاستعداد له من جهة الثاني.

ب.مفهوم الخطاب في الحقل اللساني:

لم يكن مصطلح الخطاب أوفر حظاً من الدقة والضبط اللازمين كغيره من المصطلحات النقدية و اللسانية، سواء على مستوى المصطلح أو على مستوى المفهوم، لذلك فقد تجاذبته مفاهيم وحدود متعددة، اختلفت باختلاف اتجاه الدراسة وزاوية الرؤية، وهي الحقيقة التي أقرها "ميشال فوكو Michel faucaeut" عندما قال أنه «وبدل أن أقلص تدريجياً من معنى كلمة خطاب (discours)، وما لها من اضطراب وتقلب، أعتقد أنني في حقيقة الأمر أضفت لها معاني أخرى بمعالجتها أحياناً كمجال عام لكل

---

[3] حمادي إدريس : الخطاب الشرعي وطرق استثماره.المركز الثقافي العربي.بيروت. ط1. 1994. ص 21

[4] الجويني: الكافية في الجدل.تح/ فوقية حسن محمد.مطبعة عيسى الباني الحلبي.القاهرة.د/ط. 1979.ص 32.

[5] الامدي: الأحكام في أصول الأحكام.تح/سيد الجميلي.دار الكتاب العربي.بيروت.ج1.ط2. 1986.ص 136.

العبارات،وأحياناً كمجموعات من العبارات الخاصة، وأحياناً أخرى كممارسة منظمة تفسر وتبرر العديد من العبارات»[6].

الأمر الذي يؤكد الصعوبة التي يمكن أن تواجه الباحث في تحديد وضبط هذا المصطلح، وهو ما أوقع الكثير منهم في فخ مقابلته بمصطلحات نقدية ولسانية أخرى،على غرار الكلام،الملفوظ، النص، اللغة، الجملة...إلخ، من منطلق أن ما شاع عن الخطاب عن كونه بنية أو شبكة من العلاقات القائمة بين العناصر المشكلة لبنيته، وبين نقاط مرجعية تقع خارج نطاقه.

ويقال إن مصطلح الخطاب من المصطلحات التي استمدت من خارج حقل اللغة،إذ«لم يكن لفظ الخطاب متصلاً في الأصل باللغة اتصالاً مباشراً،إذ اللفظ (discours) الفرنسي، مشتق من الأصل اللاتيني (discurrere) بمعنى الجري هنا وهنا»[7]، ولكنه وسرعان ما تغلغل هذا المصطلح في حقل الدراسات اللسانية، في خضم اهتمام اللسانيين بدراسة اللغة دراسة وصفية، إذ ارتبط مصطلح الخطاب في الدراسات الغربية بفكرة أساسية في هذا الدراسات، ونقصد بذلك ثنائية اللغة والكلام التي أسس لها "دوسوسير"، جاعلاً اللغة ملكة جماعية ذات بنية لغوية معينة، بينما الكلام فهو التأدية الفعلية للغة .

ويركز دوسوسير في دراسته على قطب اللغة بصفتها صورة ثابتة، وبنية قائمة على شبكة من العلاقات، دون الكلام ذلك العنصر المتغير، الذي «يتحقق في صور مختلفة لا حصر لها ،يتعذر دراسة هذه الصور في الواقع»[8]، لذلك فقد توجهت الدراسات كلها تقريباً إلى دراسة الشق الثابت من اللسان دراسة آنية وصفية تهدف بالأساس إلى الكشف عن

---

[6] نقلاً عن سارة ميلزة: الخطاب.تر/يوسف بغلول. منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات.جامعة منتوري .قسنطينة. 2004.ص03

[7] صابر محمود الحباشة: الأسلوبية والتداولية– مدخل لتحليل الخطاب– عالم الكتب الحديث. الأردن.د/ط.2011. ص 102

[8] ذهبية حاج حمو: لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب.دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر.د/ط. ص 79.

مجمل الخصائص والشروط التي تتحكم في هذه البنية المغلقة و المعقدة دون الالتفات إلى ما يحيط بها ويؤثر فيها خارجياً، حتى جاء الوظيفيون ولفتوا الانتباه إلى جانب المهم من الدراسة.

وتذكر البحوث أن أول من استخدم مصطلح "الخطاب" هو (هايمز Haymse)[9] في الدراسات اللسانية الحديثة، في محاولة منه لتوسيع التحليل اللساني من الجملة إلى الخطاب، بيد أن هذا مفهوم الخطاب قد تعدد وتنوع بحسب منطلقات كل اتجاه، من الدراسة الشكلية إلى الدراسة التواصلية.

– **فالاتجاه الأول:**يرى بأنه« الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة»[10]،مع الاهتمام بالعناصر المشكلة لهذا الشكل، والبحث عن الروابط والعلاقات القائمة بينها، ومدى انسجامها ومناسبتها لبعضها البعض، باعتبار أن الخطاب هو «وحدة مساوية للجمل أو هي أكبر منها، وتتشكل هذه الوحدة من متتاليات تكون رسالة(message) ذات بداية ونهاية»[11].

–**الاتجاه الثاني:** يرى أن الخطاب هو الاستعمال الفعلي لنظام اللغة، فإذا كان «اللسان هو نظام يتقاسمه أفراد مجموعة لسانية، (فالخطاب هو) استعمال مخصوص لهذا النظام»[12]، وعلى هذا فقد توجه الاهتمام إلى الشق التفاعلي لهذا الاستعمال، والتركيز أكثر على إنجازيته المتحققة في ظروف وأنساق معينة، حتى قيل أن الخطاب هو « نشاط فواعل واقعين في سياقات معينة»[13]، متجاوزين بذلك الوصف الشكلي الخطاب، إلى تحديد مجموع العناصر المشكلة له والمؤثرة فيه، والمساعدة على تأويله.

---

[9] ويقال إن "هاريس" هو أول من استعمل مصطلح الخطاب في الدراسات الحديثة، للاستزادة ينظر :سعيد يقطين: تحليل الخطاب.المركز الثقافي. الدار البيضاء.ط3. 1997. ص17

[10] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب. ص 73

[11] صابر محمود الحباشة: الأسلوبية والتداولية. ص 104

[12] المرجع نفسه.ص 107

[13] صابر محمود الحباشة: الأسلوبية والتداولية.ص 106.

مما جعل مصطلح الخطاب « يحيل على نوع من التناول للغة، أكثر مما يحيل على حقل بحثي محض، فاللغة في الخطاب لا تعد بنية اعتباطية بل نشاطاً لأفراد مندرجين في سياقات معينة»[14]، وهي المعطيات التي يجب على المرسل استثمارها لتحقيق أهدافه من الخطاب، فالخطاب ليس بناء لغوي محض، بل « هو ممارسة تجري تداولياً في السياق»[15].

[14] دومنيك ما نغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب.تر/ محمد يحياتن.الدر العربية للعلوم ناشرون و منشورات الاختلاف. الجزائر.ط1. 2008. ص 38.

[15] سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي. ص40.